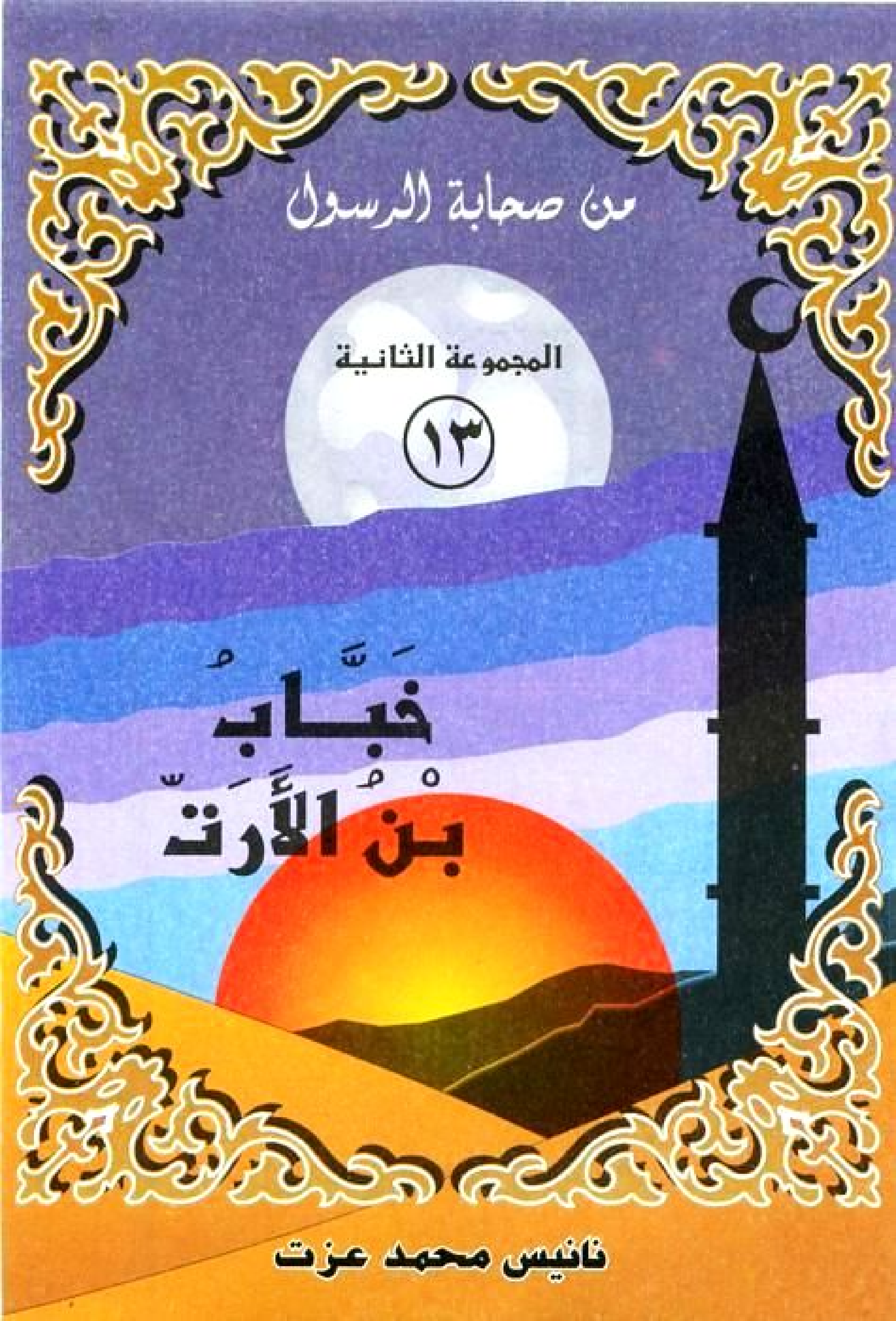

من صحابة الرسول
المجموعة الثانية
١٣
خَبَّابُ
بْنُ الأَرَتّ
نانيس محمد عزت

خَبّابُ بنُ الأَرَتّ

رجَعَ إسْماعيلُ من النّادى مُرْهَقاً ، وارتَمى على مَقعدٍ وَثيرٍ مُريح ، وقالَ لوالِدِه :

ـ قد تَعِبت ، فإنّ التّدريبَ اليومَ كانَ شاقاً .

ابتسمَ والِدُه وقال : اسْتِذكارُ الدُّروس شاقٌّ مُمِلّ ، وتَدريباتُ السِّباحَةِ شاقّةٌ مُرهِقَة ، فما هو الشَّىْءُ الذى تَراهُ سَهلاً مُمتِعا ؟ الجُلوسُ على مَقعدٍ مُريح ، ومُشاهَدةُ التّليفزيونِ مِثلَ العَجائز ؟

قالَ إسْماعيل : لَمْ أقصِدْ ذلكَ يا أبى ، فأنا أُحبُّ السِّباحَة ، ولكنَّ مُدرّبَ السّباحَةِ أهلَكَنا منَ التّعَب ، فقد فرضَ علينا أن نَقطعَ حَمّامَ السِّباحَةِ ذَهاباً وإياباً أكثرَ من ثَلاثينَ مرَّة .

قالَ والِدُه : لا تَنسَ يا إسماعيلُ أنَّ بُطولَةَ الجُمهورِيَّةِ على الأبْواب ، ويجِبُ أن يكونَ فريقُ السِّباحَةِ على أتَمِّ اسْتِعدادٍ لَها . أينَ العَزيمَةُ والمُثابَرةُ وقوَّةُ التَّحمُّل ؟ فأنتَ تَستَصعِبُ السِّباحَةَ في المِياهِ البارِدَةِ المُنعِشَة ، في هذا الحرِّ اللاّفِح ، وتَعجَزُ عن تَحمُّلِها ، فما بالُكَ بمن كُوِيَ بالنِّيران ، وبالحَديدِ المُحْمَى ، وسُحِبَ على وَجهِه فوقَ رِمالِ الصَّحراءِ المُلتَهبَة ، ومع ذلك صَبَر وتَحمَّل ، ولم يُظهِر الألَمَ لأعْدائه .

تعجَّب إسْماعيلُ وقال : أحقًّا هذا ؟ ومَن كانَ ذلِك ؟

تدخَّلت والِدةُ إسْماعِيلَ في الحَديثِ فقالَت : إنّه لم يكُنْ شَخصاً واحِداً يا إسْماعيل ، بل العَشَراتِ والعَشراتِ من الفُقَراءِ والعَبيدِ والضُّعَفاء ، الّذين آمنوا بدَعوةِ مُحمَّد ــ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ــ ولم يَكنْ

لَديهِم القُوَّةُ أو المَلجأُ الّذى يَحميهم من بَطشِ الكفّار . ولكن يَظهَرُ أنَّ والِدَكَ يَقصِدُ شَخْصاً بعَينِه ، فمن يا تُرَى الّذى يَقصِدُه ؟

قالَ والِدُه : نَعم ، فأنا أقْصِدُ الخَبّابَ بنَ الأَرَتِّ .

قالت والِدَتُه : حَقًّا ، فهو مِثالٌ فَريدٌ فى الفِداءِ والعَطاء .

قالَ إسْماعيل : ولكِنّى لا أعرِفُ قِصَّتَه ، فهل تَحكيها لى يا أَبى ؟

قالَ والِدُه : نَعَم بكُلِّ سُرور ، فَحياةُ الخَبّابِ الأَرَتِّ قُدوَةٌ يُحتَذَى بها . فقد عاشَ الخَبّابُ حياةَ الرِّقِّ والعُبودِيَّةِ مُنذُ سَنَواتِهِ الأولَى ، حينَ أغارَ الأَعداءُ على قَبيلَتِهِ بَنى تَميم ، وأخذوهُ بينَ السَّبايا ، وباعوهُ فى سوقِ الرَّقيقِ بمَكَّةَ - وكانَ لسوءِ حظِّهِ أن اشْتَرتهُ من السّوقِ أُمُّ أنْمارِ الخُزاعِيَّة . اشْتَرَتْه لتَدفعَهُ إلىَ العَمَل

وتَكسِبَ من ورائه . فدفعتْ به إلى أحَدِ الحَدّادينَ ليتعلّم منه صِناعَةَ السُّيوف ، وهى تِجارَةٌ رائجَة ، لم يكن يَستغنِى عنها الرِّجالُ أو الشَّبابُ عندَ خُروجِهِم للصَّيدِ أو للقِتال ، فهىَ حِرفَةٌ تُدِرُّ على صاحِبِها المالَ الوَفير .

وحينَ بلغَ خبّابٌ سِنَّ الشَّباب ، واشْتَدَّ عودُه ، وأتْقنَ صِناعَةَ السُّيوف ، اسْتأجَرَت له أُمُّ أنمارٍ دُكّاناً يعمَلُ فيه ، وكانَت تُرهِقُهُ دائماً بطلبِ الدَّراهِم .

وأقبلَ النّاسُ على شِراءِ السُّيوفِ منَ الخبّاب ، وذلك لِمَهارَتِهِ فى صُنْعِها ، ولِما كانَ يَتحلّى به من أمانَةٍ وصِدقٍ وإخْلاص .

وظلَّ خبّابٌ على تلكَ الحالَة ، يقِفُ أمامَ الكورِ يُشعِلُ النّارَ بنفسِه ، ثم يُدخِلُ الحَديدَ فى النّار فيَنْصَهِرُ

ويُصبحُ عَجينَةً لَيِّنَةً فى يَدِهِ ، يُشكِّلُها كيفَ يَشاء ، مدَّةَ سَنتَينِ أو أكثر .

إلَى أنْ سطعَ النّورُ فى مَكّةَ فجأَة ، وراحَ النّاسُ يَتناقَلونَ خبَرَ الرِّسالَة الّتى جاءَ بها مُحمَّدُ بنُ عَبدِ اللّه ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ فأشرقَ فؤادُ الخبَّاب ، وانْشرحَ صَدرُهُ لمَبادئ الدّينِ الجديد السَّمحَة ، فأسرعَ إلى مُحمَّدٍ ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ يُعلنُ إسْلامَه .

سألَ إسْماعيل : أكانَ خَبابٌ من المُسلِمينَ الأوائل ؟

قالتْ والِدَةُ إسْماعيل : نَعم ، بلْ كانَ منَ العَشَرةِ الأوائل الّذينَ دَخلوا فى الإسْلام .

وقيلَ إنّ ترتيبَه فيهم هو السّادِس ، إذْ أسلمَ قبلَ أن يتّخذَ الرّسولُ ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ وأصحابُه ، دارَ الأرقَمِ مَقرًّا لهم .

قالَ والِدُه : صَدقْتِ ، ولَمْ يَكتَفِ الخَبّابُ بإسْلامِه ، بل أعلنَهُ وأظهرَه على المَلأ ، برَغمِ عِلمِهِ بما سيُلاقيهِ من أشَدِّ أنْواعِ العَذابِ والتّنكيل ، فلمْ يكن يشغَلُ بالَه عِندئذٍ إلاّ النّورُ الّذى ملأ قلبَه . وعلِمتْ أُمُّ أنمارٍ بإسْلامِه ، فاستَشاطتْ غَضَباً ، وواجَهتْه هِيَ وأخوها « سَبّاعُ بنُ عبدِ العُزّى » . وبَعضُ فِتيانِ خُزاعَة . وسألَه سَبّاع :

ـ يُشاعُ أنّكَ صبأتَ وتَبعتَ غُلامَ بنى هاشِم .

فردَّ عليهِ خبّابٌ فى هُدوء : ما صَبأتُ وإنّما آمَنتُ باللّهِ وحدَهُ لا شَريكَ له ، وتَركتُ عِبادَةَ أصْنامِكُم ، وشَهِدتُ أنّ مُحمّداً عبدُ اللّهِ ورَسولُه .

وكانتْ كلِماتُ خبّابٍ بمَثابَةِ الضّوءِ الأخضَرِ لسَبّاعٍ ومن مَعَه ، فانهالوا على خَبّابٍ ضَرباً ورَكلا ، وقذَفوه

بما وَصلت إليهِ أيْديهم من مَطارِقَ وقِطعِ الحَديد ، حتّى هوَى على الأرض ، وسقَطَ مَغشِياً عَليه .

وهَكذا ضربَ خبّابٌ لنا أفضَل مِثال للصَّبر والجَلَد وقُوّةِ التّحمُل ، وصَلابَةِ العَزيمَةِ وصدق الإيمانِ باللّه .

فقد تَفنّنتْ أمُّ أَنْمارٍ وأخوها سَبّاعٌ في تعذيب الخَبّاب ، فكَووه بأسْياخِ الحَديدِ المُحماة ، وألْبسوهُ دُروعَ الحَديد ، وصَهروهُ في حَرارَةِ الشّمسِ الحامِيَة .

وأكثَرَ من ذلكَ أنّهم حَموا الحِجارَةَ بالنّار ، وألصقوها بظَهرِهِ العاري حتّى ذهَبَ لَحمُه .

قال إسْماعيلُ مُشمئِزًا : كفَى يا أبي أرْجوك . إنّ ما تَصِفُهُ من ألوانِ العَذابِ لا يُحتَمل . فكيفَ يَستَطيعُ إنسانٌ أن يتحمَّلَ كلَّ هذا العَذاب ؟

قال والِدُه : لقد تحمَّلَهُ الخبّابُ بصَبرٍ وجَلَد . فطالَما حاولَ جلاّدوهُ انتِزاعَ كلِمَةٍ منه تَنصُرُ آلهَتَهُم ، حتّى إذا اشتَدَّ به العَذابُ سألوه : ماذا تقولُ فى مُحمَّد ؟

أجاب : هو عَبدُ اللّهِ ورَسولهُ ، جاءَنا بدينِ الهُدَى والحَق ليخرِجَنا منَ الظُّلماتِ إلى النّور .

فيستَمِرّونَ فى تَعذيبِه ويعُاوِدون سُؤالَه : وماذا تقولُ فى اللاّتِ والعُزّى ؟

كانَ ردهُّ : صَنمانِ أصَمّانِ أبكَمان ، لا يَضُرّانِ ولا يَنفَعان .

فلم يزِدْهُم ردُّه إلاّ غَضَبا ، واستَمرّوا فى تَعذيبِه بما لا طاقةَ للبشَر أن يحتَمِلَه .

ولم تكن أُمُّ أنمارٍ أفضلَ من أخيها سَبَّاع ، فكانت تَحمى قِطعَ الحَديدِ فى الموقِدِ الّذى يعملُ عليه خبّاب ، وتَضعُها على رأسه حتّى يُغمَى عليه .

فإذا رآهُ الرَّسولُ ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ كذلك ، أسِفَ لحالِه ، فلم يكُن يَملكُ أن يَمنعَ عنهُ العذاب ، ورفع كفّيْهِ إلى السَّماءِ ودَعا له : اللّهمَّ انصُر خبّابا .

وشاءَ اللّهُ فلم تَمضِ إلاّ بِضعَةُ أيّام ، حتّى أُصيبَتْ أُمُّ أنْمارٍ بسُعار ، جَعلَها تَعوى مِثلَ الكلاب ، وقيلَ لها إنّه لا عِلاجَ لها إلاّ أن يُكوَى رأسُها بالنّار .

وهكذا شَربتْ من نفسِ الكَأسِ الّتى طالَما سَقتْها لِخَباب ، وقاسَى رأسُها آلامَ الحَديدِ المُحمى ، إذا أصْبحَتْ وإذا أمْسَت .

قالَ إسْماعيل : أحْسَن ! إنّها تَسْتحقُّ ذلك وأكثَر ، فإنَّ اللّهَ يُمهلُ ولا يُهمِل ، ولعلَّ النّارَ تُذيبُ عَقلَها المُتَحجّر .

وماذا عن أَخيها سبّاع ؟ ماذا كانَ من أمْرِه ؟

قال وَالِدُه : أخذَ حمزةُ بنُ عبدِ المُطلّب بثأرِ خبّابٍ من سبّاع ، فعاجَلَهُ بضَرْبةٍ قاتِلَة ، قضتْ عليه يومَ أُحُد .

قالَ إسْماعيل : حَمْدا لِلّه ، فقد نالَ كـلٌّ مِنهُمـا مـا يَستحِقُّ من عِقاب .

قالَ والدُه : ورغمَ ما لِقيَه خبّابٌ من عَـذاب ، كـانَ دائماً حريصاً على حُضورِ مَجالِسِ الرَّسول ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ وحِفظِ ما يَنزلُ عليه من القُرآنِ أوّلاً بأوّل ، ودِراسةِ كلِّ ما يتعلّقُ بالدّين . كما كـانَ حَريصاً على نَشرِ الدّين وتَعليمِ إخْوانِه منَ المُستَضعَفين ، الّذين كانوا يَكتُمون إسْلامَهم خوفاً من بطشِ قُرَيش ، فكان يذهبُ إليهم فى بُيوتِهم ويُعلّمُهم القرآن .. أتعلمُ يا إسْماعيلُ أن كان لخَبّابِ الفضلُ فى إسْلامِ الفاروقِ عُمرَ بنِ الخطّاب ؟

قالَ إسْماعيل : كيفَ ذلكَ يا أبى ؟ كيفَ لِذلك العَبدِ الضّعيف أن يصِلَ لعُمرَ بقُوّتِه وجَبَروتِه ؟ أو لَم يَكفِهِ ما لَقيَه من عَذاب ؟

ابتسمَ والِدُه وقـال : إنَّ لذلـك قِصَّـة . فبينَمـا كـان الخَبابُ ذاتَ مَّرة عِنـدَ فاطِمـةَ أُختِ عُمَـر ، إذ حَضـر عُمرُ مُتقَلّداً سيفَه ، وهو يَنوى الشَّرَّ بأُختِـهِ وزَوجِهـا ، حيـث سَـمِعَ أنَّهمـا تَركـا دينَهمـا واعتنَقـا الإسـلام . فعِندَما كان بالبـاب ، سَمِعَ صـوتَ الخَبّابِ وهـو يَتلـو القُرآن ، فتأثَّر بعُذوبَةِ صَوتِه ، وعظَمَةِ ما سَمِع .

ومـا أن خَطـا داخِـلَ البَيـت حتّـى اختفَـى الخَبّـاب . وحاولَ عُمرُ أن يأخُذَ الصَّحيفَةَ من يَد أُختِـه ، ولكنَّهـا منَعَته وقالَت : يا أخى إنَّك نجسٌ على شِركِك ، وهـذه الصَّحيفَةُ لا يَمسُّها إلاّ المُطهَّرون .

فاغْتَسل عُمَرُ وتَطهَّر ، وما أنْ قـرأ سـورَةَ طـه حتّـى لانت سَريرَتُه ، وقال : دلّونى على مُحمَّد .

هنا ظهرَ الـخبّابُ وقال : واللّهِ يا عُمَر ، إنى لأرْجو أن يكونَ اللّهُ قد خصَّكَ بدَعوة نبيِّه ـ صلّى اللّهُ عليـه

وسَلّم ـ فقد سَمِعتهُ أمسِ يَقول : اللّهُمّ أيّدِ الإسْلامَ بأبى الحكمِ بنِ هِشام ، أو بعُمَرَ بنِ الخَطّاب . وقد كانَ إسْلامُ عُمرَ مكْسَباً عَظيماً للإسْلام ، لا يَستَطيعُ أحدُ أن يُنكِرَه .

* * *

وهاجرَ خبّابٌ إلى المدينَةِ مع أقرانِهِ منَ المُسلِمينَ المستُضعَفين . وفى المَدينَةِ ذاقوا طعمَ الرّاحَةِ لأوّلِ مَرَّة ، مُنذُ دَهرٍ طَويل .

وشهدَ خبّابٌ جَميعَ الغَزَواتِ مع الرَّسول ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ فكانَ ناراً ألهبتْ من أذاقوهُ لَهيبَها ، وكان سَوطاً سَلّطَهُ اللّه على مَن أذاقوه ضَربَ السِّياط .

ومدَّ اللّهُ فى عُمرِ خبّاب ، فعاصرَ جميعَ الخُلفاءِ الرّاشدين ، وعاشَ فى رِعايتهم ، جليلَ القَدرِ نابهَ الذّكر .

هنا قالت والدَة إسماعيلَ لوالده : لقد قصصت عليه جانبَ الفِداء فى حَياةِ الـخَبَّاب ، فلا تَنسَ أن تقُصَّ عليه جانِبَ العَطاءِ والجود .

قال والِدُه : وكيف نَنسى أنَّ خَبَّاباً اتّصف بأنَّهُ أُسطورَةُ فِداءٍ وعَطاء ، فاسمَعْ يا وَلدى !

اغْتَنى خَبّابٌ فى الشَّطرِ الأَخيرِ من حَياتِه بعد فَقْر ، وملكَ مالم يكُنْ يَحلُمُ بهِ من الذّهبِ والفِضّة ، فانْظُرا ماذا كانَ من أمرِه . وضَعَ كلَّ مَا يَملكُ من دراهِمَ ودَنانيرَ فى مَوضعٍ من بَيْتِه يَعرِفُهُ الـمُحتاجونَ ، كما يَعرِفُهُ الفُقراءُ والـمَساكين ، فكانوا يأْتونَ إلى دارِهِ ويأخُذونَ ما يُريدون ، دون سُؤالٍ أواستِئذان .

قالَ إسْماعيلُ مُندهشا ؟ أيُعقلُ هذا ؟

قالَ والِدهُ : ومعَ ذلك نَجدُهُ يومَ وفاتِه ، خائفاً أن يكونَ اللّهُ قد عجّلَ له بثوابِهِ فى الدُّنيا ، عن ثَوابه فى الآخِرة .

ولقِيَ خبّابٌ وجهَ ربّه فى السّنةِ السّابعَةِ والثّلاثين للهِجرة . وحينَ مرَّ علىٌّ بنُ أبى طالِب بقَبرِه ، دَعا قائلاً : رَحِمَ اللّه خبّابا ، أسلَمَ راغِبا ، وهاجر طائعا ، وعاشَ مُجاهِدا ، وابتُلِيَ فى جِسمِه أهْوالا ، ولن يُضيعَ اللّهُ أجرَ من أحسَنَ عملا .

قالَ إسْماعيل : إنّهُ مثال حىٌّ لقُوّةِ التّحمُّلِ والمُثابَرة . فيا لِلفِداء ويا لِلتّضحِيَة !

قالت والِدَتُه : ليسَ وحدَه يا وَلدى ، بل مَعهُ العَشراتُ والمئاتُ منَ المُستَضعَفينَ الّذين تحمّلوا الذُّلَّ والهَوان ، حتى وصلَ بهِمُ الإسْلامُ إلى بَرِّ الأمان . فلولا صبرُهم وجَلَدُهم وتَحمُّلهم المَشاق ، ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه فى خدمَةِ الإسْلام .

قال إسْماعيل : شكرًا لخَبّاب ، ولِمنْ مَعه منَ الصّحابَة .